

## الفصل الحادى عشر

### تنظيم الحقائق التاريخية

اختيار الحقائق - تسميها - مثال للتقسيم العام - أساس التقسيم - التفرع ببعض الأسئلة - تحديد البدء والنهاية - مثال من تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى : من يوليو سنة ١٧٨٧ إلى يوليو سنة ١٧٩٠ - مجموعات الحقائق المختلفة - إبراز محور الحوادث - إظهار تطور المجتمع - بعض أمثلة .

يصل الباحث فى التاريخ إلى مرحلة تنظيم أو ترتيب الحقائق التاريخية التى تجمعت لديه . ومن غير شك ينبغى عليه أولاً أن يفاضل بينها وأن يستمسك ببعضها ويدع جانباً بعضها الآخر . وفى الواقع أن كل الحقائق التاريخية لها قيمة فى حد ذاتها ، ولكن الباحث مضطر إلى اختيار جزء منها لاستخدامه فى كتابة التاريخ . والحقائق التى يتركها جانباً تساعده - وإن لم يبرزها - على فهم كثير من مسائل التاريخ . ويمكن للباحث أن يختار الحقائق على أساس موضوعه أو اتجاهه إلى الكتابة فى الناحية التى تعنيه ، سواء أكانت ناحية سياسية أم اقتصادية أم عسكرية أم دينية أم ثقافية . . . .

وينبغى على الباحث أن يشرع فى تنظيم الحقائق التاريخية وتنسيقها فى مجموعات وأقسام . تبعاً لظروفها الظاهرة ولسائر خصائصها . وأسهل طريقة للتقسيم هى القائمة على ظروف الحقائق الخارجية . إذ أن كل حقيقة تاريخية ترتبط بزمان ومكان محددين ، وتتعلق برجل أو بجماعة أو بمسألة معينة ، وبذلك يجد الباحث أمامه مجموعات من الحقائق المتنوعة . ثم عليه أن يأخذ فى تقسيم هذه المجموعات إلى أقسام فرعية . ويرتبها ترتيباً زمنياً أو مكانياً ، أو بحسب المجموعات التى تنتمى إليها . وقديماً كانت الحقائق تُذكر بغير ترتيب ، فكان ليثى وتاسيتوس مثلاً يخلطان الحقائق الخاصة بالفيضان والأوبئة بأخبار الحروب والثورات ، وكذلك فعل مؤرخو سائر الأمم .

ولم تُقسّم الحقائق تبعاً لطبيعتها وخصائصها إلا فى زمن متأخر . والقاعدة المتبعة فى هذا التقسيم ، هى اختيار الحقائق المتعلقة بنوع واحد من الأفعال ووضعها

في قسم واحد . وكلُّ من هذه الأقسام يُصبح موضوعاً لفرع معين من التاريخ . وهناك بعض ما ورد في كتاب لانجلوا وسينيوبوس بشأن تقسيم الحقائق التاريخية بناء على الظروف الخارجية ، وعلى طبيعة الحقائق وخصائصها ، وارتباطها بمظاهر النشاط الإنساني :

#### ١ - الظروف المادية :

( أ ) دراسة الجسد : علم الإنسان ( الأنثروپولوجيا ) والتشريح وعلم وظائف الأعضاء ( الفسيولوجيا ) وعلم السكان من حيث العدد والجنس والتوالد والوفيات والأمراض .

( ب ) دراسة البيئة : البيئة الجغرافية الطبيعية وعمل الإنسان مثل الصناعة والزراعة والطرق والمباني . . .

#### ٢ - العادات العقلية :

( أ ) اللغة وما يتصل بها من الكتابة والألفاظ وعلم الأصوات وعلم المعاني .  
( ب ) الفنون التشكيلية كالرسم والتصوير والنحت وفنون العمارة والفنون التعبيرية كالآداب والموسيقى والرقص .

( ج ) العلوم : مناهجها ونتائجها .

( د ) الفلسفة والأخلاق نظرياً وعملياً .

( هـ ) الدين بما فيه من العقائد والشعائر .

#### ٣ - العادات المادية :

( أ ) الحياة المادية بما فيها من الغذاء والملبس وأدوات الزينة والمساكن والأثاث .

( ب ) حياة الإنسان الخاصة كالعناية بالجسد والمراسم الاجتماعية في الزواج

والوفاة والأعياد ووسائل اللهو والتسلية .

#### ٤ - العادات الاقتصادية :

( أ ) لإنتاج في الزراعة وفي تربية الحيوان واستغلال المعادن .

( ب ) الصناعة وتقسيم العمل ووسائل النقل .

( ج ) التجارة والتبادل .

( د ) التوزيع : نظام الملكية وما يتصل بها .

## ٥ - النظم الاجتماعية :

- ( أ ) الأسرة ، تكوينها والسلطة الأسرية وأحوال النساء والأبناء والتنظيم الاقتصادي في الأسرة وملكية الأسرة والميراث فيها .
- ( ب ) التعليم ، فرصه ووسائله والقائمون به ، العلوم والفنون والآداب والثقافة .
- ( ج ) طبقات المجتمع وأساس تقسيمه والقواعد التي تنظمه .

## ٦ - النظم العامة :

- ( أ ) النظم السياسية . الحكومة والإدارة المالية ، الهيئات المنتخبة وطريقة انتخابها وسلطتها ، الهيئة القضائية ، القوة العسكرية ، الأعمال العامة ، المواصلات ، الشؤون الصحية ، القوانين المحلية .
- ( ب ) الهيئات الدينية وما يتصل بها .
- ( ج ) النظم الدولية ، الدبلوماسية ، الحرب والسلام ، القوانين الدولية والتجارية \* .
- ويلاحظ أن هذه التقسيمات لا تكون مستقلة بعضها عن بعض تمام الاستقلال ، إذ هي متداخلة فيما بينها . ففي العرض التاريخي - وهو ما سندكر شيئاً عنه بعد - نجد مسائل جغرافية أو اجتماعية أو سياسية أو أدبية أو اقتصادية . . . متصلة بعضها ببعض . ويتضح فيها الأثر المتبادل بينها ، بحسب الموضوع الذي يتناوله الباحث في التاريخ . وإذا لم يكن الباحث راغباً في دراسة هذه المسائل كلها على قدم المساواة ، فإنه في هذه الحالة يجعل بحثه منصباً على مسألة بعينها ، فيتوسع ويتعمق فيها ، جاعلاً من المسائل الأخرى المتصلة بها وسيلة إلى فهم وإيضاح المسألة الخاصة التي يجعلها هدفاً لدراسته .

وحيثما يشرع الباحث في تنظيم وترتيب الحقائق التاريخية التي اجتمعت لديه ، تبدو أمامه مسألة جديرة بالعناية . فكل عمل إنساني هو بطبيعته ظاهرة مفردة ترتبط بزمان ومكان محددين . وبمعنى آخر فإن كل حقيقة أو كل حادث تاريخي هو حادث قائم بذاته وله مميزاته وظروفه الخاصة . ولكن يلاحظ من ناحية أخرى أن كل عمل إنساني يشبه في الوقت نفسه أعمالاً أخرى للشخص ذاته ، أو يشبه أعمال رجال آخرين ينتمون لنفس بيئته ، وقد يبلغ التشابه درجة تجعل هذه الأعمال

تتصف بصفات واحدة ، حتى لتفقد مُسَخَّصاتها كأعمال مفردة قائمة بذاتها . وهذه المجموعات من الأفعال المتشابهة يمكن أن تسمى بالعادات أو العرف أو النظم ، والتي هي حقائق جماعية تمتد في الزمان والمكان .

وعلى ذلك ينبغي أن تُدرس الحقائق وتنظَّم على أساسين : على أساس العناصر المفردة القائمة بذاتها ، وعلى أساس عناصرها الجماعية المستمرة . وكلتا الناحيتين ضرورية . إذ لا بد من الجمع بين الحوادث العامة والحوادث الخاصة المعينة . فثلا لا يمكن فهم تاريخ النظم الفرنسية ، إذا اقتصر الباحث على دراسة الحوادث أو التيارات العامة . دون دراسة سقوط الباستيل مثلا . والعكس صحيح .

وينبغي على الباحث في التاريخ أن يلاحظ أوجه الشبه والخلاف بين الجماعات الإنسانية ، ولا يجعل تنظيمه وتقسيمه للجماعات قائمين على التشابه السطحي . بل ينبغي عليه أن يتبين على وجه الدقة طبيعة كل جماعة بعينها : فما أوجه الشبه بين أفراد الجماعة الواحدة ؟ وما الصلة التي ربطت بينهم ؟ وما الآراء أو العادات التي سادت بينهم ؟ وما أوجه الخلاف ؟ فالبروتستانت مثلا تجمعهم رابطة واحدة بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية ، ولكنهم ينقسمون فيما بينهم إلى طوائف من أتباع لوثر أو كلفن أو زوينجلى . . . واللغة الواحدة مثلا تنقسم إلى لهجات ، ولبعضها قيمة أدبية خاصة ، والدولة الواحدة تنقسم إلى مقاطعات . . . ففى مثل هذه المسائل يلاحظ الباحث الصفات العامة المشتركة التي تكوّن فيما بينها وحدة أو رابطة عامة ، فضلا عن ملاحظة الخصائص الجزئية المميزة لكل فرع أو شعبة من هذه الرابطة العامة الجامعة .

وتقتضى دراسة النظم مثلا التدرّج ببعض الأسئلة . لكي توضح بعض المسائل المتعلقة بالأشخاص ووظائفهم . وفيما يتعلق بالنظم الاجتماعية والاقتصادية ، ينبغي على الباحث في التاريخ أن يعرف تقسيم الطبقات التي وُجدت . وكيف تكوّنت كل طبقة . وما وظائف كل طبقة منها ؟ وما العلاقة بين أفراد الطبقة الواحدة ، وبين كل طبقة وأخرى ؟ وعلى هذا الأساس تُنظَّم الحقائق التاريخية المتعلقة بهذه النواحي ، تمهيدا للعرض التاريخي .

وفيما يتعلق بنظم الحكم مثلا ينبغي أن يتدرّج الباحث في التاريخ بسلسلتين

من الأسئلة :

- ١ - مَنْ الذين كانوا أصحاب السلطة في زمن معين؟ وهل كانت السلطة في يد أفراد قلائل أم كانت موزعة في أكثر من ناحية ، وإلى أى مدى؟ وينبغي على الباحث أن يعرف هذه النواحي سواء أكانت قليلة أم كثيرة ، ويحلل هيئة الحكومة في أقسامها وفروعها المختلفة ، من كبار الموظفين وأعاونهم وموظفي السلطة المركزية والموظفين المحليين . وينبغي عليه أن يبحث كيف كان يُجمع أو يُختار أولئك الموظفون ، وماذا كانت سلطتهم الرسمية ، وماذا كانت سلطتهم الفعلية؟
- ٢ - ماذا كانت القوانين واللوائح الرسمية؟ وماذا كان مضمونها؟ وكيف كانت تطبق هذه القوانين؟ وإلى أى حد روعيت نصوص القوانين وروحها؟ وهل خولفت القوانين ، وهل حدث تلاعب واحتيال واستثناءات للمنافع وأهواء شخصية؟

وبعد تحديد كل الحقائق المتعلقة بمجتمع ما - إذا كان موضوع الباحث هو دراسة أحد المجتمعات - يبقى على الباحث أن يحدد الحقائق التي تضع هذا المجتمع بين المجتمعات الأخرى المعاصرة ، فيدرس الحقائق المتعلقة بالنظم الدولية والسياسية والاقتصادية ، ويتبين النظم والعادات التي انتشرت بين أكثر من جماعة أو دولة واحدة ، ويرتب الحقائق التاريخية المتعلقة بها لإيضاح ما هو بصدد دراسته .

ولتُدرس بعض الأمثلة المعينة التي توضح طريقة تنظيم الحقائق التاريخية . ومن المهم في هذا التنظيم تحديد الموضوع أو المسألة التاريخية التي يكتب عنها الباحث ، بحسب الحقائق التي اجتمعت لديه ، وإن خالف ذلك تصوره للموضوع عند بدء بحثه . فيوضع بدء ونهاية للحقائق التي يرغب في تنظيمها وترتيبها في ذلك النطاق . وأحياناً يكون تحديد نهاية الموضوع أيسر من تحديد بدئه .

وكما أشرنا إليه من قبل ، نلاحظ أنه باستمرار الباحث في الاطلاع والدرس يصبح أكثر دراية بموضوعه ، والأدلة التي كان يعدّها في أوائل بحثه هامة وجوهرية ، ربما تقل أهميتها أو تسقط . لظهور حقائق وأدلة أكثر أهمية ، والعكس صحيح .

وإذا أردنا مثلاً أن نبحث تاريخ تأسيس الإمبراطورية الألمانية الحديثة ونشأتها ، فإننا نستطيع بسهولة أن نحدد تاريخ وصول هذه الحركة إلى أوجها ، أي عند إعلان الإمبراطورية الألمانية عقب انتصار ألمانيا على فرنسا في حرب السبعين . ولكن ليس من السهل علينا أن نحدد متى بدأت هذه الحركة . ويمكننا أن نتعقب حوادث الماضي حتى سنة ١٨٤٩ . سنة الثورات في أوروبا ، كما يمكننا أن نرجع إلى الوراء أكثر من هذا . أي إلى انتصار نابليون بونابرت على بروسيا في بينا في سنة ١٨٠٦ ، ويقظة الروح القومية في بروسيا والولايات الألمانية على أثر تلك الهزيمة ، وما ترتب على ذلك من تنظيم الشعب البروسي والألماني لاسترداد حريته . ثم تطلعه إلى النمو والانتساع وتكوين الإمبراطورية الألمانية الحديثة . ولنأخذ مثلاً آخر أكثر تحديداً وليكن من تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى . كما أورده الأستاذ فيلنجر .

ولنضع تحديداً للفترة الواقعة بين يوليو سنة ١٧٨٧ ويوليو سنة ١٧٩٠ . التاريخ الأول هو التاريخ الذي طلب فيه برلمان باريس اجتماع مجلس طبقات الأمة ، الذي لم يُدع إلى الاجتماع منذ عهد لويس الرابع عشر . والتاريخ الثاني عبارة عن تاريخ اجتماع حدث في ساحة مارس\* في باريس ، حيث قدمت إليها وفود من كل أنحاء فرنسا ، وأقسمت بالمحافظة على الدستور الذي وضعته الجمعية الوطنية . وتنقسم هذه الفترة التاريخية قسمين : القسم الأول يمتد من يوليو سنة ١٧٨٧ حتى يوليو سنة ١٧٨٩ ، ويتعلق بتاريخ مجلس طبقات الأمة وبتحواله إلى الجمعية الوطنية ، وانتهى ذلك بثورة ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ . والقسم الثاني ومدته سنة واحدة ، حدث فيه إلغاء امتيازات النبلاء وإعادة تنظيم فرنسا وتدعيم وحدتها . نلاحظ أن ترتيب الوقائع التاريخية الخاصة بالقسم الأول أكثر سهولة من ترتيب الوقائع التاريخية الخاصة بالقسم الثاني . وحوادث القسم الأول هي من نوع واحد بصفة عامة . على حين أن حوادث القسم الثاني تتكوّن من أنواع مختلفة . فلكى يسهل العمل على الباحث ، يلزمه أن يقسم حوادث القسم الثاني إلى مجموعات الحقائق التي يتكوّن منها .

فالمجموعة الأولى هي مجموعة الحوادث السياسية ، وتنقسم إلى الفروع الآتية :

- ١ - سياسة الملك والبلاط وإزاء الثورة .
  - ٢ - سياسة نكسر وجماعته .
  - ٣ - محاولات أعضاء الجمعية الوطنية تأليف الوزارة .
  - ٤ - عمل الجمعية الوطنية في تنظيم فرنسا وحكمها .
  - ٥ - تطبيق الدستور الجديد .
- والمجموعة الثانية هي مجموعة الوقائع الاقتصادية وتنقسم إلى الفروع الآتية :

- ١ - حقوق أمراء الإقطاع .
- ٢ - الحالة المالية .
- ٣ - الكنيسة وأملاك الدولة .
- ٤ - التمويل .
- ٥ - المتعطلون .

والمجموعة الثالثة هي مجموعة الوقائع الدينية ، وتنقسم إلى الفروع الآتية :

- ١ - إلغاء هيئة رجال الدين كنظام قائم بذاته .
- ٢ - إلغاء الأديرة .
- ٣ - مصادرة أملاك الكنيسة .
- ٤ - القانون المدني الذى وُضع لرجال الدين .
- ٥ - علاقة فرنسا بالبابوية \* .

وقد تنقسم هذه الفروع إلى فروع للفروع بحسب الضرورة . وتُدرس كل هذه الفروع وفروع الفروع على أنها أجزاء من أقسام أكبر . ومن هذه الحقائق المقسمة يتكوّن التاريخ الذى يؤلفه الباحث فى التاريخ .

وعلى الباحث أن يبرز الحقائق التى يدور عليها محور الحوادث التى يتناولها . فإذا أراد أن يكتب مثلاً عن تاريخ مجلس طبقات الأمة حتى ثورة ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ ، فإن اهتمامه يتجه أولاً نحو فرساي ثم ينتقل إلى باريس ثم إلى فرنسا كلها وهكذا . فعليه أن يرتب الحقائق على هذا الأساس ، وينظم الحقائق المتعلقة

بمحوادث الثورة في باريس ، ثم ينتقل إلى بيان أثر الثورة في أنحاء فرنسا ، لأن محور الحوادث انتقل إليها ، حيث ثار الفلاحون على أمراء الإقطاع ، وترتب على ذلك القضاء على بقايا النظام الإقطاعي ، وانتهى الأمر بإلغائها في ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ . ثم تصبح فرساي مرة أخرى مركزاً للحوادث حينما أخذ رجال الثورة يبحثون في هل يعطون الملك حق رفض القوانين ؟ وهذه مسألة من أهم المسائل التي واجهتها الثورة الفرنسية في ذلك الوقت . وتبع ذلك الظروف التي أدت إلى حوادث ٦ و ٥ أكتوبر من السنة ذاتها .

وهنا ينبغي على الباحث أن يدرس بعض النقط الهامة . مثل مسألة الأغذية . ومؤامرات البلاط ، والحركة الرجعية التي ظهرت في الجمعية الوطنية ، مما جعل سكان باريس لا يثقون بموقف الملك من الثورة ، ورأوا ضرورة إقامته في باريس حتى لا يجد الفرصة للتأمر على الثورة . ويضاف إلى ذلك ما أصاب أهل باريس من الجوع لقلة الخبز ونقص المواد الغذائية ، فأدى ذلك إلى إثارة الشعب واندفاع الطبقات الفقيرة نحو فرساي لحمل الملك على الانتقال إلى باريس في ٥ و ٦ أكتوبر سنة ١٧٨٩ . فينبغي على الباحث في كل مرحلة من هذه المراحل أن يركز اهتمامه على المحور الذي تدور عليه الحوادث .

وما هو جدير بالذكر أنه حينما يجمع الباحث الحقائق ويقوم بتنظيمها . عليه أن يحرص على إبراز التغيرات التي ربما تكون قد طرأت على المجتمع في الفترة التي يتناولها . وظروف المجتمع خاضعة لعوامل التغيير من عصر إلى آخر ، حتى لو ظهرت أنها ثابتة . وقد يكون التغيير تقدماً أو تأخراً وانحلالاً . ولكي يفهم الباحث طبيعة هذا التغيير -- أو التطور -- عليه أن يتدرج ببعض الأسئلة التي يتوصل بها إلى معرفة حالة المجتمع في عصر معين ، ويبحث أسباب التطور الذي طرأ على الحوادث والتقاليد والحكومة والشعب . . . وظروف ذلك التطور ومداه .

ويمكننا أن نضع العمليات التي تساعدنا على فهم التطور الذي يلحق بالمجتمع الإنساني . على النحو التالي :

١ - تحديد الحقيقة التي يدرسها الباحث تطورها .

٢ - تحديد الزمن الذي حدث خلاله التطور .

٣ - تحديد أدوار التطور ومراحله .

٤ - بحث العوامل التي أحدثت ذلك التطور .

٥ - تحديد النتائج التي ترتبت عليه وأثرها في المجتمع الإنساني .

ومن الواضح أن التطور التاريخي لا يحدث نتيجة للقوانين والقواعد المجردة فحسب ، بل يحدث نتيجة للحياة العملية الواقعية . ويتأثر بعوامل متنوعة ، ويخضع أحياناً لظروف طارئة لم تكن في الحسبان . وعندما يطرأ تغيير على عادة ما ، على اللغة أو على الدين أو على نظام الحكم في ظروف الحياة المألوفة . فإن هذه العادات أو النظم لا تتغير من تلقاء نفسها ، بل الذي يتغير أولاً هم الناس الذين يمارسون هذه العادات ويُطبِّقون هذه النظم . كما أن العادات أو النظم ربما تصبح غير ملائمة للمجتمع فيعمل الإنسان على تغييرها . ويضطر الباحث أحياناً إلى ملاحظة بعض الحقائق المفردة ، لأنها توضح أصل اتجاهات خاصة في المجتمع ، وتعدّ نقطة البدء لأنواع مختلفة من التطور التاريخي .

فينبغي على الباحث في التاريخ أن يدرس العوامل المختلفة المتداخلة ، التي تؤثر في المجتمع الإنساني ، ويضع كل مجموعة من الحقائق في زمانها ومكانها ، على اتساق وتوافق ، في سلسلة التطور الإنساني . وأحياناً يكون التطور أسرع في ناحية منه في سائر النواحي ، في ناحية السياسة أو الاقتصاد أو العلم أو الفن أو الأدب . . . فعليه أن يوضح هذه الناحية الخاصة - إن وجدت - مع دراسة سائر النواحي التي ترتبط بتيار التطور الأساسي .

ومن الأمثلة على ذلك ما أحدثته غارات البرابرة على الإمبراطورية الرومانية من التغيير في حياة الشعوب التي خضعت لها . في اللغة أو النظم السياسية أو في حياة الناس الخاصة أو في الاقتصاد أو في الفن . . . ونحن لا يمكننا دراسة تاريخ النظم الفرنسية وتطورها ، إذالم ندرس الأثر الذي أحدثته فتح يوليوس قيصر لبلاد الغال ، وأثر غارات البرابرة عليها . التي كانت من أهم العوامل في نشأة فرنسا الحديثة

فينبغي على الباحث في التاريخ أن يُنظِّم الحقائق التاريخية التي تقع تحت يده ، على النحو الذي يُمكنه من أن يضعها في السياق التاريخي الملائم .